جامعة محمد لمين دباغين – سطيف 2

كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية **قسم التاريخ و الاثار**

مقياس : تاريخ و اثار المغرب القديم

السنة الثانية اثار

اعداد الدكتور : اونيس ميلود

السنة الجامعية 2021 – 2020

الغزو الوندالي لبلاد المغرب

1- التعريف بالوندال و ظروف غزوهم للبلاد المغاربية:

- **التعريف بالوندال:** معرفة الموطن الأصلي للوندال من الصعوبة بمكان، وهذا لتضارب الروايات و أراء المؤرخين في هدا الموضوع. وكل ما يمكننا ان نستشفه من الروايات الأربع الأساسية التي تناولت تاريخ الوندال، هو ان هذه العناصر انحدرت من السلالات النوردية(الشمالية).

ويري كورتوا (C.courtois) ، وهذا اعتمادا على علم المواقعية Toponymie ان اسم الوندال_ربما_ يكون مشتقا من اسم قرية سويدية تدعى« وندال Vendel » في اوبلاند، و هو ما جعله يرى في هذه المنطقة موطنا أصليا للوندال و هذا خلافا للدراسات اللغوية التي تعتبر الوندال اقرب من الدانمركيين منهم إلى السويديين. و على لعموم، و حتى إذا كانت معلوماتنا الحالية لا تسمح لنا بإثبات الأصل الاسكندينافي الوندال، فان تاريخ الوندال يبدا في الوقت الذي سمحت لنا الدلائل الأدبية بتحديد مواقعهم في سهول أودر (Oder) و فيستول العليا، ففي أوائل عصر البرونز _ حوالي 1800 ق.م كانت الشعوب الجرمانية تحتل فقط الجزء الساحلي من البلطيق، و انتشرت فيما بعد على ضفاف الدانوب و الراين، حتى وصلت إلى بلاد الكلت، بينما نجد هذه الشعوب في العصر البرونزي الثاني (مابين 1350-1200ق.م) في أوروبا الوسطى، و خصوصا في الألب و أودر فيستول، وفي هذه المناطق نعثر على حضارة تعود إلى عصر الحديد، لا يمكن ان تكون لا جرمانية و لا كلتيا، فهي حضارة وندالية محضة، إذ سبقت الوندال إلى هذه المنطقة قبائل جرمان الشرقية، ومن بعدهم جاء اللومبارديون و القوط.

ويكاد يحدث إجماع بين المؤرخين على إقامة الوندال في منطقتي أودر و فيستول ، قبل ان تأتي الغزوات الاسكندينافية من القسم الشمالي لجرمانيا ، و التي دفعت الوندال إلى الجنوب ، إلى جبال (Geant) . و في النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي (167م) ، وعلى اثر اندلاع حرب ماركومانوس (Marcomans) اتجهوا إلى اقاليم داقيا (Dacie) حيث استقر على الراين و الدانوب ، قبل ان يتعرضوا لضربات القوط (290 م) التي دفعتهم بدورها إلى الاستقرار بين تييس و ماروش (Theisset Marosch) في إقليم ترنسلفانيا ، بينما نحدهم في اواخر القرن الرابع (392 م) في إقليم بانونيا ، في اوائل القرن الخامس، و بعد انهزامهم أمام الفرنك (409 م) في غالة ، تسللوا إلى اسبانيا ، و أمام عجز الامبراطور هونوريوس (Honorius) في الدفاع على امبراطوريته، انتشر الوندال في شتى ارجاء اسبانيا . و بعد صراع طويل مع الرومان دام حتى سنة 422 م ، خربوا اثناءها اسبانيا اضطهدوا الكاثوليك ،

هاجموا جزر البيليار سنة 425 و سواحل موريطانيا سنة 428 م ، و في هذا الوقت بدات تظهر نواياهم في التوسع إلى ابعد من اسبانيا ، وهي النوايا التي سيجسدها« جنسريق» مستغلا الظروف التي كانت تعيش فيها منطقة المغرب ، اثر الصراع اذي شب بين بلاكيديا (Placidia) و بونيفاس .

2 – ظروف غزو الوندال للبلاد المغاربية : لم تزعزع وفاة الامبراطور " هنوريوس " Honorius سنة 423 م اخلاص والي إفريقيا " بونيفاس" اتجاه العائلة الامبراطورية ، فلم يعترف بيوحنا (Jean) الذي اعلن نفسه امبراطورا في ايطاليا ، فوقف بونيفاس إلى جانب بلاكيديا و ابنها فلانتيانوس (Vallentien) البالغ من العمر انذاك (4) سنوات.

كان لجهود بونيفاس الاثر الفعال في هذه الظروف، ومن الطبيعي ان تكون بلاكيديا مدينة له بالعرش اعتلته باسم ابنها. و هو ما اظهرته في اول الامر تجاه هذا الشخص الذي كانت تراه الاجدر و الاصدق في الدفاع عن الامبرطورية، لكن اطماع ايتيوس(Aetius) سرعان ما تنزع لفلانتيانوس الثالث أعظم قادته" بونيفاس" و أغنى مقاطعاته "إفريقيا" ، و ذلك بإثارة بلاكيديا على بونيفاس، خاصة بعد إقناعها بضرورة دعوته إلى رافن (Ravenne) سنة 427 م ، حيث كان رفض هذا الأخيرالاستجابة للدعوة في نظر الوشاة دليلا كافيا على نوايا بونيفاس الاستقلال بإفريقيا ، فكان من نتائج ذلك إرسال قوات لإخضاع المتمرد ، لكن هذا الخير هزم القوات الرومانية ، فما كان من مستشاري الإمبراطورية و ابنها إلا جمع قوات جديدة ومعتبرة وضعت تحت قيادة سجسفوات (Sigisvult) القوطى الذي يبدو انه استولى على هيبو- ريجيوس (عنابة) و قرطاجة ، أوائل 428 م . و أمام خطورة الوضع أدرك بونيفاس انه لا يمكنه الوقوف في وجه كل قوات الإمبراطورية الرومانية ، وهو ما دعاه إلى الاستنجاد بالوندال .

إذا كان جوليان يشك في رواية الاستنجاد هذه الواردة عند بروكوبيوس و جوردانيس (Jordanes) ، فان بروسبير المعاصر للأحداث ، قد أكد لنا استنجاد الطرفين ، بونيفاس و سجسفوات ، بالوندال ، و هذا خلافا لهيداتيوس (Hydatius) الذي اعتبر هجرة الوندال إلى بلاد المغرب نتيجة منطقية ، بعد الهجومات التي استهدفت موريطانيا الطنجية سنة 428 م ، و هي الهجومات التي يمكننا اعتبارها بمثابة عمليات جس النبض من طرف الوندال ، تجسسوا خلالها إمكانيات غزو إفريقيا ، ووجدوا ان الظروف مناسبة ، ليس بسبب تمرد بونيفاس فحسب ، بل كان الوضع العام في إفريقيا مهيأ ، فكانت الثورات المحلية واحدة تلو الأخرى ، بسبب إرهاق السكان بالضرائب ، بالإضافة إلى الاضطهاد الديني الذي كان يمس خاصة الدوناتيين .

إذا كان الوضع في إفريقيا ملائما للحملة الوندالية ، فان اسبانيا بدورها لم تكن مواتية للوندال ، فكان على الوندال هنا مواجهة لا الرومان فحسب ، بل أيضا القوط الأعداء التقليديين الذين سبق لهم الإغارة أكثر من مرة على شبه الجزيرة ، إضافة إلى ان فترة القلائل التي عاشتها اسبانيا منذ دخول الوندال ، جعلتها تستنفذ خيراتها ، و لم يعد بإمكانها ان تقدم شيئا لهذه الأقوام الراغبة في النهب و الثراء . فلا نستبعد ان تكون ثروات إفريقيا قد استهوت قادة الوندال ، وعلى رأسهم جنسريق الذي كان يبحث عن الشرعية لحكمه ، فأراد ان ينسى قومه بحملة ناجحة ، انه هو الابن غير الشرعي الذي قتل شقيقه (قوندريك) (GUNDERIC) ليصل إلى الحكم .

و يذكر أيضا من الأسباب التي دفعت الوندال لاجتياز المضيق ، الأمل الثابت في ان يسرع الأهالي لمساعدتهم ، من المور ، وكل المتعصبين و المضطهدين و الرومان غير الراضيين ، بالإضافة إلى الكونت بونيفاس .

3-حملة الوندال على بلاد المغرب:

اجتاز جنسريق مضيق جبل طارق رفقة كامل شعبة المقدر بحوالي ثمانين(80) ألف نسمة، منهم خمسون(50) ألف جندي ، لكن سرعان ما تتضاعف قواته بمن ينضم إليه من الأهالي ، الذين عانوا الأمرين من الرومان، فخرجوا لاشفاء غليلهم من الطغاة المستبدين الذين أبعدوهم عن أراضيهم و سلبوهم خيراتها . و نفهم من جيبو ان الوندال لم يجدوا فقط الأهالي إلى جانبهم، وإنما حتى الرومان أنفسهم، الذين فضلوا فوضى الوندال على قساوة الإدارة الرومانية، حيث نجد فظاعة و قساوة الضرائب التي أثقلت كامل مجموع الملاكين الحضريين منهم و الريفيين، التي لا شك أنها كانت وراء وقوفهم إلى جانب الوندال نذكر الدوناتيين المتعطشين للانتقام من الكاثوليك الذين شردوهم و جردوهم من ممتلكاتهم و اضطهدوهم شر اضطهاد، وهو ما دفعهم، لا إلى الانضمام إلى الغزاة فحسب، بل عملوا حتى استمالة القوط الذين أرسلهم الإمبراطور لمحاربة الوندال.

يبدو ان الوندال لم يصطدموا بمقاومة تذكر قبل الوصول إلى حد نوميديا، رغم ما صحب حملتهم من أعمال النهب و التخريب و التقتيل و التعذيب على ما يذكر بوسيديوس و فيكتيور دي فيتا.

تقدم جيوش الوندال، و عجز الرومان في التصدي لهم، رغم تراجع بونيفاس الذي أدرك خطورة الخطوة التي خطاها، عندما استنجد بالوندال، و محاولته وقف زحفهم بعد التصالح مع بلاكيديا، لكنه اضطر إلى الانسحاب إلى هيبو _ ريجيوس (عنابة) بعد هزيمته في المعركة الأولى، وهي المدينة التي لم يتأخر الوندال في حصارها لمدة أربعة عشر شهرا، و رغم

حصول اسبار على رأس قوات جديدة و انضمامه إلى بونيفاس، فقد انهزم الاثنان، و استولى جنسريق على المدينة سنة 431 م.

كان من نتيجة وفاة بونيفاس بشهور قليلة بعد تعيينه قائدا أعلى ان جعلت إفريقيا بدون حام، مما اضطر ايتيوس إلى عقد اتفاقية هيبو – ريجيوس مع جنسريق (11 فبراير 435 م) والتي يبدو انها اكدت شروط المعاهدة الأولى (431 أو 432 م) التي هيمونوا بموجبها لا على مقاطعات موريطانيا الثلاث فحسب ، بل أيضا على جزء من نوميديا، و ليظهر جنسريق نوياه السلمية – على ما يذكر بروكوبيوس-

تعهد بدفع غرامة سنوية للامبراطور ، مقابل الاراضي التي استولى عليها ، كما بعث بابنه هونريك إلى روما كرهينة .

تخلى جنسريق على المعاهدة المذكورة ، بعد ان استعاد ابنه ، فاستولى على قرطاجة (19 اكتوبر 439 م) دون مقاومة تذكر، و اخذ بعدها يعد العدة لمهاجمة جزر المتوسط ، بعد ان جهز لذلك اسطولا ، فكانت معاهدة 442 م التي كانت لصالح الوندال الذين بسطوا نفوذهم على كل البروقنصلية و في سنة 455 م استولى الوندال على ما تبقى في يد الرومان بموجب معاهدة 442 م ، كإقليم طرابلس و الموريطانيات الثلاث و مدوا نفوذهم على كل الإقليم الشرقي من قابس إلى معبد الفيلان ، و سيطروا بذلك على إفريقيا ظاهريا على الاقل ما يقرب قرنا من الزمن .

4 – حدود السيطرة الوندالية :

قلنا سابقا ان الوندال استولوا سنة 455 م على ما تبقى في يد الرومان ، و سيطروا بذلك على إفريقيا ، لكن و رغم الخلاف الواضح بين المؤرخين ، يبدوا ان السيطرة الوندالية على إفريقيا لم تكن كاملة و قد حصرها كثير من المؤرخين في الولايات الشرقية ، ومن بين هؤلاء المؤرخين نذكر كورتوا الذي يرى ان كل المعطيات الاثرية من نقوش و مسكوكات ، تدعم فكرة حصر دولة الوندال في الولايات الشرقية و لكن هذا لا ينفي من وجهة نظر نفس المؤرخ ان يكون للوندال بعض نقاط الارتكاز على السواحل مثل تافزة (تيبازة) ، قيصرية ، سبتة ، معتدا على اشارتي فيكتور دي فيتا و بروكوبيوس ، اذ اشار الأول إلى عملية قطع الالسنة التي تمت في تيبازة ، رغم اننا لم نجد عند غيره ما يدل على احتلال الوندال لهذه المدينة ، بينمااشار الثاني إلى ارسال بيليساريوس (Belisaire) لاحد قواده للسيطرة على قيصرية ، و اخر لاسترجاع سبتة . لكن هذه الاشارات لا تدل على الحاق الولايتين (القيصرية و الطنجية) بالممتلكات الوندالية . ومما يدعم ذلك افلات المنحدر الجنوبي للاطلس المتيجي من السيطرة

الوندالية و الذي كانت السيدة فيه منذ سنة 474 م لامير محلي يدعى " يقمينا"(Iugmena) وفق نقش البرواقية ، و يكفينا دليلا على السيطرة الجزئية للوندال ، ما نجده من تقسيم جنسريق لامبراطوريته إلى خمس مقاطعات ، تتركز كلها في المنطقة الشرقية : 1 – المزاق (Byzacène) ، 2- نوميديا ، 3- اباريتان (Abaritane)، 4- الجيتول (الجريد و المناطق الجنوبية) ، 5- زغوان (Zeugitane) اضف إلى ذلك النصوص العديدة التي تتحدث عن ممالك مغربية محلية ، كانت تربطها بالوندال علاقات مختلفة ، سنتعرض لها في اوانها .

5- موقف الاهالي من الوندال :

اذا كنا لا نستطيع القول ان العلاقات بين الوندال و الاهالي كانت طيبة ، لان النزاعات بين الطرفين لا يمكن نكرانه على ما يفهم من بروكوبيوس فان المؤكد ان نوعا من التعاون كان موجودا بين الطرفين ، يعود إلى ما قبل الحملة على روما سنة 455م ، مادام هؤلاء " المور " قد شاركوا في الحملة على ما يذكر فيكتور دي فيتا ، كما شاركوا في الحملات الموالية و لهم على ما يفهم من بعض المؤرخين اوكلت مهمة الدفاع عن سردينيا، بعد احتلالها من طرف الوندال ، وهو ما يبرهن بطريقة او باخرى في نظر كورتوا على الوفاق بين الطرفين .

و مما يدعم هذه العلاقات الطيبة بين الطرفين ، ما ذكره فيكتور دي فيتا ، من نفي مارتينيانوس و اخوته إلى مملكة كابسوس (Capsus) التي يحاول كورتوا ، تحديد موقعها بشيئ من التحفظ إلى الجنوب الغربي من مقاطعة المزاق .

يمكننا الاقرار عموما مع صاحب "حرب الوندال " ان الظروف تغيرت على اثر وفاة جنسريق ، و بدات ثورات الاهالي بدون هوادة ، منذ عهد هونوريك ، الذي غطت الحروب كل عهده ، هو ما ادى بدون شك إلى اعلان الاوراس الاستقلال قبل وفاة هونوريك بقليل على ما يفهم من بروكوبيوس و يمكننا القول مع كورتوا ان ثورة الاوراس تعد حدثا اساسيا في مملكة لوندال ، لا لانها مست الوندال في قوتهم الاساسية ، و لا لانها سببت لهم هزيمة كبرى ، لكن لان معها تبدا في الظهور في المناطق الخاضعة للوندال ، تلك الممالك التي بدات تنمو في إفريقيا المستقلة عن الوندال .

مع ذلك كل ما نعرفه عن هذه المملكة (مملكة الاوراس) في عهد الوندال هو استلاؤها على ثاموقادى و بغاي ، الذي يبين لنا نزول سكان الاوراس إلى السهول ، بالاضافة إلى استلائها

على المناطق الخصبة و الغنية غرب الاوراس و المجاورة لمملكة الحضنة . و هي المملكة التي نجدها في اوائل العهد البزنطي تحت حكم يوداس (Iaudas) على ما يذكر بروكوبيوس و الذي كان تحت تصرفه (30000) محارب ، و تمكن من مد نفوذه إلى الجنوب الشرقي من قسنطينة الحالية .

اذا كنا لا نكاد نعرف عن مملكة كابسوس غير اسمها و انها كانت موجودة قبل سنة 477م ، فهو أيضا شأن مملكة ماسوناس (Massonas) ، التي لا يمكننا تحديد مجالها الجغرافي رغم ميل كورتوا إلى النمامشة ، بينما نجد انتالاس (Antalas) ملكا على المزاق .

لم تتوقف ثورات المور على اثر وفاة هونوريك ، بل تزايدت في عهد خليفته " قوثاموندوس" على ما يذكر بروكوبيوس و قد تكون غارتهم وراء اختفاء " لوحات البرونتي " Tablettes d'albertini في وقت لاحق (21 افريل 496 م) ، و هي الفترة التي كان على الملك ان يدافع فيها أيضا عن السكان الذين كانوا يتعرضون للنهب لكن هذه الغارات كانت من الشدة لدرجة ان القديس فولجانتيوس(Fulgence) اضطر إلى مغادرة(المونستير Monastere) إلى منطقة المدينة القديمة (Thelepte) و يبدو انه بعد ذلك بقليل لمتفلت من جنون الحرب هذه غير المناطق الساحلية للمزاق .

أمام هذا الخطر المتزايد قرر هلدريك ارسال قوات تحت قيادة هلديمير (Hildimir) الذي برهنت هزيمته على ان انتالاس كان سيد الموقف و لم يعد بامكان الوندال التصدي لثروات الاهالي التي عمت مختلف مناطق البلاد ، و حصرت الوندال في البروقنصلية و مناطق محدودة من المزاق ، و هو ما سهل بدون شك مهمة البيزنطيين ، و الا كيف نفسر عنملية الاستعداد التي تمت بستة عشر (16) الف رجل بقيادة بيليساريوس ، منهم ستة (6) الاف فارس فقط .

رغم اننا لا نجد اي نص يسمح لنا بالتأكيد ان هزيمة هلدريك كانت عاملا مشجعا ليوستينيانوس للقيام بالحملة على إفريقيا ، لكن ذلك غير مستبعد لعاملين : يكمن الأول في تتبع يوستينيانوس (Justinien) للاحداث بإفريقيا ، خاصة منذ عزل هلدريك (Hildèric) ثانيهما في عدد الرجال الذين ارسلهم ، فلو لم يكن على دراية بالوضع الذي آل اليه الوندال ، لما غامر بارسال مثل هذا العدد ، خاصة و ان إمبراطورية الشرق سبق لها و ان ذاقت الأمرين على يد الوندال ، و إذا علمنا ان ثلاثة أسابيع كانت كافية لبيليساريوس لدخول قرطاجة ، أدركنا الظروف التي آل إليها الوندال في إفريقيا بفضل الثروات المحلية

جامعة محمد لمين دباغين – سطيف 2

كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية قسم التاريخ و الاثار

مقياس : تاريخ و اثار المغرب القديم

السنة الثانية اثار

اعداد الدكتور : اونيس ميلود

السنة الجامعية 2021 – 2020

الغزو البيزنطي لبلاد المغرب

1-التعريف بالبيزنطيين و ظروف غزوهم للبلاد المغاربية:

-التعريف بالبيزنطيين: يمكننا ان نعتبر يوم11 مايو 330 م، الذي أصبحت فيه مدينة بيزنطة العاصمة المسيحية للإمبراطورية الرومانية، البداية المنطقية للدولة البيزنطية، رغم استمرار الوحدة السياسية للإمبراطورية الرومانية ظاهريا في عهد قسطنطينوس (Constantin) و بعض خلفائه، لكن القسطنطينية، لم تكن عاصمة شكلية، لا في المجال الديني و لا المادي، فقد استطاعت بفضل موقعها ان تكون مركز ارتكاز للهلينية، التي أعطت دائما للولايات الشرقية خصوصياتها و طابعها و حتى مؤسساتها، وهو ما يفسر لنا سرعة تطور إمبراطورية الشرق غداة وفاة ثيودوز (Theodose) و تقسيم الإمبراطورية الرومانية بين اركاديوس (الشرق) و هنوريوس (الغرب) سنة 395م، التاريخ الذي اعتبر بداية الوجود الرسمي للإمبراطورية البيزنطية.

إذا كانت روما قد تعرضت لضربات القبائل الجرمانية المدمرة، فان بيزنطة رغم عدم إفلاتها من هذه الضربات، فهي لم تعان من سيطرة هؤلاء على أراضيها، و هو ما سيمكنها فيما بعد من القيام بما عرف بـ: « حركة الاسترداد في عهد بوستيتنيانوس»

2-أسباب و عوامل الاحتلال:

إذا كان طموح يوستينيانوس (Justiien) الراغب في إنشاء إمبراطورية عالمية و استرداد أمجاد الإمبراطورية الرومانية على ما يذكر بعض المؤرخين وراء الحملة، فإننا نجد جملة من الأسباب و العوامل التي تكون قد عجلت بذلك، يمكننا إيجازها في الصراع الديني القائم آنذاك بين الكاثوليكية و الاريوسية، و ما نجم عنه من تعرض كاثوليكي إفريقيا لمتابعات و اضطهادات عديدة طيلة فترة حكم الوندال الاريوس (533-429م)، الذين نعتوا بـ : « أعداء الروح و الجسد »في قانون يوستينيانوس، فكان من الطبيعي، ان يلجا هؤلاء إلى إمبراطورية الشرق طلبا للنجدة.

كان في القسطنطينية في هذا الوقت عددا كبيرا من الأفارقة ضحايا الاضطهادات الوندالية، وعدد ضخم من الأساقفة الذين كانوا عرضة للتعذيب الوندالي و حول كل هؤلاء التف الارثوذكس يتوسلون من الامبراطور التدخل .

كما اظهر هلدريك (Hildiric) تسامحا كبيرا اتجاه الكاثوليك ، قد تكون صداقته ليوستينيانوس وراء ذلك ، و هو ما اتار استياء الوندال ، كما كانت الهزائم العديدة التي منيت بها الجيوش الوندالية أمام الاهالي خاصة في المزاق ، وراء استياء الجيش و ابعاد هلدريك ، و لاتيان بجلمير (Geilimer) إلى الحكم ، و هو ما تسبب في انقسام عميق في صفوف الوندال ، و تدخل الديبلوماسية البيزنطية .

اضف إلى الانقسام في صفوف الوندال ، الثورات المحلية ، التي لم تكن اقل احراجا للسلطة الوندالية ، اذ لم تتأخر القبائل المحلية في العمل على التخلص من سلطة جنسريق ، حيث اعلن الاوراس الاستقلال منذ عهد هونوريق Huniris (477 – 484 م) دون ان يتمكن الوندال من اخضاعهم ثانية . بعد الاوراس يأتي دور الحضنة و الزيبان ، فكانت هذه الثورات التي لم تجد رادعا لها وراء نزول الاهالي إلى السهول ، و اجتياز خطوط الحصون الرومانية ، التي كانت تحول سابقا و الوصول إلى الهضاب العليا النوميدية .

في عهد تاراسامندوس (496 – 522 م) Trassamund كانت ثورة طرابلس بقيادة قاباون Gabaon ، في عهد هندريك تكمن قبائل المزاق من الحاق الهزيمة بجيوس الوندال اكثر من مرة ، فكانت كل هذه الثورات وراء ارهاق امكانيات الوندال ، و اضعاف جيوشهم و الحد من نفوذهم الذي بدا ينحصر شيئا فشيئا .

اذا اضفنا كل هذه العوامل ، تجبر جلمير ، و قصر نظره ، زيادة على انحياز قوط ايطاليا (Ostirogths) إلى يوستينيانوس ، بعد اغتيال امالافريد (Amalafride) زوجة تراساموندوس القوطية ، و كذا ثورتا طرابلس و ساردينيا و ادركنا العوامل التي ستساهم بدون شك في إنجاح الحملة .

3-الحملة على إفريقيا :

قرر يوستينيانوس التدخل العسكري في إفريقيا ، بعد فشل مساعيه الرامية إلى اعادة هلدريك إلى منصبه او اخلاء سبيله و السمح له بالهجرة إلى القسطنطينية ، و هو القرار الذي اثار ضجة في مجلس الامبراطوري ، اذ كان الكل متخوف ، على ما يفهم من بروكوبيوس ، لدرجة ان بعضهم ضخم مخاطر هذه الحملة ، التي لا طائلة من ورائها ، حسب تعبير يوحنا كبادوكيا . حتى كاد يوستينيانوس ان ييأس بدوره و يشك في امكانية نجاحها ، لكن لا شك ان الضغوط الدينية و المعلومات الدقيقة التي استقاها من الاساقفة الافارقة عن موقف سكان إفريقيا ، و الوضع في مملكة الوندال ، هي التي كانت وراء اتخاذ القرار القاضي بارسال الحملة .

اقلعت الحملة في اليوم الثاني والعشرين من يونيو (جوان) سنة 533 م بقيادة احسن قادة الامبراطورية بيليساريوس ، الذي عين على رأس ستة عشر الف محارب بين مشاة و فرسان . نزلوا في منتصف سبتمبر عند رأس كبوديا (Caput-Valda) إلى الجنوب من خضرموت (سوسة) بعد ثلاثة اشهر من الابحار ، و رغم ان بعض مساعدي بيليساريوس قد طلبوا منه الابحار ثانية ، و التوجه نحو قرطاجة مباشرة ، غير انه فضل ان يسلك الطريق البري الساحلي عبر سلقطة (Sellectum) و لمطة(Leptis Minors) و سوسة (Hadrumète) و قراس (Grasse) و هي المناطق التي اجتازها دون عناء على ما يفهم من بروكوبيوس.

عندما وصل إلى جلمير خبر نزول البيزنطيين بإفريقيا، و هو في هيرميون Hermion أسرع بالكتابة إلى شقيقه اماتاس Ammatasفي قرطاجة يأمره بقتل هلدريك و المقربين منه، و تجنيد الوندال و الاستعداد للانتقال إلى سيدي فتح الله Decimum المكان الذي اختاره جلمير لمعركة كبرى، كانت ستوقف الزحف البيزنطي، لولا الهفوة التي ارتكبها اماتاس و التي ستكون سببا في انحدار الوندال في هذه المعركة، و زوال دولتهم من الوجود فيما بعد كانت خطة المعركة تقتضي بأن يخرج « أماتاس » من قرطاجة، و يتقدم لوقف البيزنطيين عند مضيق سيدي فتح الله_ على بعد 15 كلم من قرطاجة بينما يهاجم جيبا موند (Gibamund) ابن عم جلمير ميسرة جلمير الجيش البيزنطي على رأس ألفي مقتل، في الوقت الذي يهاجمهم فيه جلمير من الخلف.

كانت الخطة مدبرة بشكل جيد، و كان بالإمكان ان تكون لها نتائج وخيمة على الجيوش البيزنطية، لو حسن استغلالها، لكن وصول «أماتاس » قبل وصول باقي القوات الوندالية، و دخوله لمعركة دون باقي القوات، مكن يوحنا الأرميني (Jean l'Arménien) من التقدم نحو قرطاجة بعد إبادة قوات «أماتاس » الذي قتل في المعركة. تقدم جيبامواند لمهاجمة ميسرة القوات البيزنطية، لكنه اضطر إلى التراجع قرب سبخة السيجومي، بعد ان ترك العديد من القتلى في الميدان. أما جلمير فقد فوت على نفسه الفرصة، رغم الانتصار الجزئي الذي حققه على البيزنطيين نتيجة انشغاله بجنازة شقيقه، ومكن بيليساريوس من جمع قواته و مباغتته، وبذلك حققت الجيوش البيزنطية انتصارا عريضا، تمكن على إثره بيليساريوس من دخول قرطاجة في اليوم الموالي (14سبتمبر533م) و بدون قتال.

عمل جلمير الذي فر إلى بولا_ ريجيا (حمام الدراجي)، بعد عودة شقيقه تازازون (Tazazon) من سردينيا، على استرجاع ما فاته، و تقدم نحو قرطاجة التي حاول إخضاعها بقطع الماء عنها، كما حاول إقحام بيليساريوس في معركة يختار لها المكان، لكن دون جدوى. وفي الخامس عشر من ديسمبر هاجمه الأخيرو هزمه في معركة تريكا ماروم (

Tricamarum) التي لو كر فيها جلمير على البيزنطيين ساعة اقتسام الغنائم، لتغير منحى المعركة لكن تأثره بالصدمة الأولى ، و فراره إلى جبل (Pappua) فوت عليه الفرصة ثانية ، و في هذا الجدل ضايق عليه فاراس (Pharas) الخناق حتى استسلم في شهر مارس 534 م ، بعد 3 اشهر من الحصار .

بعد استسلام جلمير ارسل بيلي ساريوس بعض قواده لاسترجاع قيصرية (Caesarée) و سبتة (Septum) و بعض جزر المتوسط ، لكن البزنطيين سيصطدمون من الان فصاعدا بمقاومة اعنف و اشد تتمثل في مواجهة الاهالي .

4 –البزنطينيون في مواجهة الاهالي :

يذكر بروكوبيوس ان الاهالي التزموا الحياد في الصراع الدائر بين الوندال البزنطيين ، و اعتبر ذلك خبثا و مكرا منهم ، خلافا لديهل الذي اعتبره تاكتيكا تعود عليه الاهالي ، الذين رأوا في هذا الصراع استنزافا لقوة الخصمين . اما بعد انتهاء هذا الصراع ، فقد رأوا ان الوقت المناسب للثورة زد على ذلك ان الوعود التي قطعها البزنطينيون على انفسفهم لم ينفذوها و لم ينل الاهالي من البزنطينيين غير الخراب و الدمار ، اذ اثرت الحروب على الانتاج الفلاحي و كذا عودة الاضطهاد الديني و الضرائب ، و هي كلها عوامل تدعوا إلى حمل السلاح .

اذا كان البزنطينيون قد انتصروا على الوندال ، دون عناء يذكر كما اسلفنا الذكر ، فان الحرب الطويلة التي سيخوضها مع الاهالي ، تختلف تماما ، فلا تفوق الاسلحة البزنطية ولا القواعد التكتيكية تجدي نفعا مع الخصوم الجدد ، ففي مواجهة خفة الفرسان الاهالي تبدوا الجيوش البزنطية ثقيلة و بطيئة الحركة كما تعجز مناهج المعارك المنظمة التي تعود عليها القادة البزنطينيون ، أمام اسلوب الكر و الفر و الكمائن عند الاهالي .

ثورات الاهالي :

لم تكد السفينة التي تقل بلي ساريويس تغادر مناء قرطاجة سنة 534 م ، حتى ثار الاهالي في المزاق ، التي سيطروا عليها بقيادة كوتزيناس (Coutsinas) الذي كان و ثلاثة من زملائه على رأس خمسين الف من الاهالي ، و تمكنوا من افناء الوحدات البزنطية ، التي جاءت لنجدة المنطقة بقيادة ايقانويس (Aigan) وروفانوس (Rufin) ، و هو ما دفع سلمان الخصي (Salomon) إلى الاسراع إلى المزاق حيث دارت معركة ماما التي فقد فيها الاهالي عشرة الاف مقاتل ، و بذلك يكون سليمان قد حقق انتصارا ساحقا على الاهالي اذا صدقنا بروكوبيوس ، لكن تحدث نفس المؤرخ عن تلقي سليمان نبأ انتشار المور في المزاق على اثر وصوله إلى

قرطاجة ، يدل على مبالغة مؤرخ الحملة و هي المبالغة التي لا تخفى على احد في حديثه عن المعركة الثانية في ضواحي جبل برقوان سنة 535 م ، التي فقد فيها الاهالي خمسين الف مقاتل دون ان يفقد الروم و لو مقاتلا واحدا .

في الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الاحداث في المزاق ، نزل يبداس Iabdas ملك الاوراس (صيف 535م) ، على رأس ثلاثين الف مقاتل ، يجوب الهضاب العليا النوميدية ، ووصل حتى حدود التل دون ان تتمكن الحاميات البزنطية من صده . فقرر سليمان اواخر سنة 535 م غزو الاوراس بعد ان آمن جانب اورتاياس Ortaias ملك الحضنة و ماسوناس Massonas لكن الحملة فشلت بعد ازيد من اسبوع في مخانق الاوراس ، اضطر بعدها العودة إلى قرطاجة على امل ان يعاود الكرة في الربيع الموالي (536 م) ، لكن ثورة ستوتزاس Stotzas تسببت في ابعاده و عودته إلى القسطنطينية .

حملة سليمان الثاني : في سنة 539 م تمت دعوة جرمانوس إلى القسطنطينية و عوض بسليمان الذي نزل هذه المرة في قرطاجة بصفته والي البريتوار و قائد قوات إفريقيا ، و لم ينس خيبته في الاوراس سنة 536 م ، فقرر ان يهاجمها ثانية على اثر عودته ، و قد ابتسم له الحظ هذه المرة على ما يفهم من بروكوبيوس الذي يذكر ان الحملة وضعت حدا لتمردات المنطقة ، بل اكثر من ذلك يتحدث عن وصول سليمان إلى ضواحي المسيلة (زابي يوستينيانا) ، و اخضاع كل موريطانيا السطايفية ، لكن دون ان يعطي اية تفاصيل عن كيفية حدوث ذلك .

نعم البيزنطيون بأربع سنوات سلم بعد هذه الحملة (539 – 543 م) لكن تعيين سيرجيوس Sergius دوقا على إقليم طرابلس ، سيتسبب في ثورة قبيلة لواتة التي هاجمت لبدة ، و رغم تمكن القوات البيزنطية من صدها على ما يذكر بروكوبيوس ، فان ثورة إقليم طرابلس ، دفعت سيرجيوس إلى الفرار إلى قرطاجة ليستنجد بسليمان الذي خرج لملاقاة الاهالي عند حدود نوميديا – المزاق ، و رغم تمكنه في اللقاء الأول من تحقيق انتصار جزئي في ضواحي تبسة فقد انهزم في معركة كليليوم Cillium التي لقى فيها مصرعه 544 م .

كانت لمعركة كيليوم نتائج وخيمة على البيزنطيين ، فإلى جانب انتشار الفرسان الاهالي في المزاق ، اجتاز القوط لفربيون مضيق جبل طارق ، و حاصروا سبتة ، زد إلى ذلك تعيين سرجيوس خلفا لسليمان و ما نجم عنه من انضمام ستوتزاس إلى انتالاس ، فتقدم كل هؤلاء و احتلوا حضرموت ، بعد ان هزموا دوق المزاق في معركة مينيفاز Ménéphese ، مماضطر قائد المشاة إلى التراجع نحو قرطاجة ، و هو ما اثار نزاعا على مستوى القيادة بين سرجيوس و يوحنا و هو ما عرف بأزمة سنتي 545 – 546 م .

على اثر هذه الازمة ارسل يوستينيانوس اريوباند Areobinde كزميل لسرجيوس ، فكلف الأول ، بقيادة الحرب في المزاق و الثاني في نوميديا و كان من نتائج الخلافات بين القائدين ان زحف الثوار على البروقنصلية و تمكنوا من القضاء على قوات اريوباند التي كانت تحت قيادة يوحنا الذي قتل في معركة برج مسعودي Thacia اواخر 545 م ، و رغم محاولة يوستينيانوس تدارك الوضع بدعوة سرجيوس إلى القسطنطينية و تعيين اريوباند قائدا اعلى لقوات إفريقيا ، فان اوضاع البزنطينيين زادت تفاقما عندما حدث تقارب بين كوتزيناس و يبداس وثوار المزاق ، مما دفع اريوباند إلى سحب فرقه نحو قرطاجة ، و تم بذلك اخلاء نوميديا بكاملها و اجزاء واسعة من المزاق التي لم يبق فيها للبزنطيين غير بعض المواقع الساحلية .

ان استمرار تدهور الاوضاع في إفريقيا بعد اغتيال اريوباند في مارس 546م قد دفع يوستينياس إلى تعيين يوحنا تروقليتا، الذي تمكن من الانتصار على الاهالي إلى الجنوب الغربي من حضرموت 547 م و اعتقد انه انهى الحرب ، و اشعر الامبراطور بذلك ، لكن سرعانة ماتجددت المعارك اثر النداء الذي وجهه كركزان Carcasan ملك ايفوراس ، الذي استجابت له القبائل الطرابلسية المدعمة بالناسامونس و الجرامانت ، و تمكنوا من مد الثورة إلى المزاق و حدود البروقنصلية صيف 548 م بعد ان عمت إقليم طرابلس و تراجع تروقيلتا بعد هزيمته في قاليكا Gallica ، ووصل الاهالي حتى ابواب قرطاجة لولا الخيانة التي ادت إلى الهزيمة في حقوق كاتو و مقتل كركزان و سبعة عشر قائدا من الأهالي، و هو ما يكون وراء الهدوء الذي نعم به البيزنطيون على مدى أربعة عشر عاما.

تجددت الثورات على اثر مقتل كووتزيناس في قرطاجة(20 ديسمبر 563م)، واستدعى الأمر قدوم قوات جديدة من الشرق بقيادة ماركيانوس (Marcien) لتهدئة الأوضاع، و على اثر وفاة يوستينيانوس خلفه يوستينوس الثاني (Justin) الذي عين توماس (Thomas) واليا على إفريقيا، وتمكن هذا الأخيران يضمن بعض الاستقرار بفضل المفاوضات التي قام بها زعماء القبائل على ما يذكر كوربيوس:« ربح بالنصح شعوب لم يسبق لأحد ان أخضعها بقوة السلاح »لكن مدح كوربيوس لا يكفي يوستينيوس مؤونة، إذ سرعان ما عرفت المنطقة قلاقل أودت بحياة والي البريتوار سنة 568م و قائدي قوات إفريقيا لسنتي 569 -570م اللذين قتلا من طرف الملك قاسمول (Gasumul)، الذي يبدو انه كون دولة قوية، على ما يفهم من محاولته غزو بلاد غالة.

رغم مقتل قاسمول سنة |578 من طرف جناديويس، و ما ذكره المؤرخون من سيطرة البيزنطيين على الوضع في إفريقيا بعد ذلك، غير إننا نجد في وصول المور إلى أبواب قرطاجة

بعد ثورة 598 ما يدل على هشاشة الوجود البيزنطي خارج البروقنصلية، ولاشك أيضا ان الأحداث التي عرفتها الإمبراطورية بعد مقتل الإمبراطور موريس و ما أعقبها من صراعات حول العرش قدت أدت إلى تراجع النفوذ البيزنطي في المنطقة المغاربية.

5-حدود السيطرة البيزنطية:

هناك اختلاف واضح في مواقف المؤرخين حول حدود السيطرة البيزنطية في شمال إفريقيا، ففي الوقت الذي يرى فيه البعض، ان« الليمس البيزنطي » لم يخالف تمام المخالفة « الليمس الروماني » على الأقل في طرابلس و المزاق و نوميديا، يرى البعض الأخر ان البيزنطيين، لم يتمكنوا أبدا من الوصول بحدودهم الرومانية. لكن يبدو واضحا من النصوص و الأحداث، ان البيزنطيين لم يسترجعوا كل ما كان بأيدي الرومان في السابق، و حتى إذا وجدنا يوستينيانوس يعتز و يفتخر باسترجاعه سنة 534م كل الأراضي التي كانت بأيدي الوندال، فإننا نعلم أيضا أن المملكة التي أنشأها جنسريق لا تشمل غير الجزء الشرقي من البلاد المغاربية.

وعليه يمكننا القول ان السيطرة البيزنطية في اقليم طرابلس كانت مقتصرة على السواحل ، اذ ادرك الاهالي على ما يفهم من النصوص السواحل ، فلبدة عاصمة الاقليم كانت عرضة لضربات القبائل المحلية ، و الاراضي الواقعة الى جنوب شط الفجاج ، التي كان يمر عليها الليمس الروماني في طرابلس حتى تالمين كانت خارج حدود السيطرة البيزنطية ، وهو ما مكن ديهل من التأكيد ان السلطة البيزنطية اكتفت من قابس حتى برقة بالطريق الساحلي الاستراتيجي ،و ان باقي الاراضي الداخلية كانت بايدي الاهالي .

وفي المزاق نجد خط الليمس يتبع طريق قابس قفصة ، هذه الاخيرة التي كانت بمثابة بوابة الصحراء و مفتاح التل ، اختيرت كمقر لدوقية المزاق ، اما في نوميديا فاذا كان البعض يعتقد ان البيزنطيين قد مدوا خط الليمس حتى الليمس الروماني – جنوب الاوراس – اعمادا على العديد من القلاع التي اقاموها في هذه الولاية ، فان ديهل يرى خلافا لذلك ، مذكرا بدخول يبداس الاوراس بعد سبع سنوات فقط من حملة سليمان ، و كذا اشتراك السكان القاطينين الحواف الجنوبية للاوراس و سكان الحواف الجنوبية للشطوط في الثورة سنة 546 م وهو ما لا يشهد من وجهة نظر المؤرخ المذكور على سيطرة بيزنطية فعلية و جعله يميل الى القول ان البيزنطينيين لم يتمكنوا لا في المزاق و لا في نوميديا من مد الليمس اكثر مما كان عليه الليمس الروماني في القرن الاول للامبراطورية باستثناء منطقة الحضنة .

اما في موريطانيا السطايفية التي يتحدث بروكوبيوس عن احتلالها من طرف سليمان بعد حملة 539 م ، فاننا لا نعرف بالضبط مناطق النفوذ البيزنطي فيها ، و كل ما نعرفه هو احتلالهم

للمناطق الشمالية من الحضنة حيث انشأوا الى الغرب من مسيلة قلعة زابي يوستينيانا Zabi Jutiniana و تمتد الحدود ربما مع وادي القصب لتصل الى هضبة مجانة و منها الى بجاية (صلداي) .

و خلافا لموريطانيا السطايفية ، فان موريطانيا القيصرية لم تخضع اطلاقا للبيزنطيين ، وفق ما اكده لنا بروكوبيوس سنة 540 م حيث قال :" في موريطانيا الثانية يقطن ماستيقاس Mastigas مع قبائله المورية ، و كانت تحت سلطته البلاد كلها ، باستثناء قيصرية ، التي كان البيزنطيون لا يتصلون بها الا عن طريق البحر ، و لا يستطيع سلوك البر ، لان المور يسيطرو على كل هذه المنطقة" وهو أيضا شأن مورطانيا الطنجية و التي اكتفى فيها البيزنطيون بسبتة و ربما طنجة .

6- انهيار الحكم البيزنطي في بلاد المغاربة

هناك مجموعة من الاسباب و العوامل ساهمت في انهيار و زوال السلطة البيزنطية من البلاد المغاربية ، يمكننا ايجازها في مايلي:

1-تفشي الفوضى و الفساد في الادارة البيزنطية وهو ما يمكن تحسسه في المحاولات العديدة التي بذلها بوستينيانوس للحد من وطأة السطو على املاك الدولة و الاتباع ، وجشع الولاة و الاداريين ، الذين ابتزوا الاهالي ، لكن بدون جدوى ، و هو دليل على استفحال هذه الظاهرة التي تفاقمت في عهد خلفائه ، لتصل اوجها في السنوات الاخيرة من حكم ايراكليوس و خلقائه الضعاف ، الذين اصبح الولاة و الادواق في عهدهم لا يستجيبون لاوامر الادارة المركزية ، حتى في مسائل الدفاع ، مثال ذلك ما حدث حوالي سنة 634 م مع بيير Pierre حاكم برقة ، الذي رفض الاستجابة لامر القسطنطينية ، و كذا جورج سنة 641 م عندما رفض العمل بتوجيهات السلطة المركزية .

2-افلاس الخزينة : تسببت حروب الامبراطورية المستمرة في الشرق و الغرب ما تتطلبه من تجنيد ، و اقامة التحصينات و المباني العسكرية في افلاس الخزينة، و عجز الدولة عن دفع اجور الجيش في العديد من المناسبات، و هو ما أدى الى العديد من التمردات في صفوفه، و قد حاولت الدولة حل المشكل باللجوء الى فرض المزيد من الضرائب على الأهالي الذين ضاقوا ذرعا، و امتنعوا بدورهم عن دفع الضرائب منذ اواخر عهد هيراكليوس لى ما يذكر ابن خلدون، الذي يفهم منه أيضا ان البيزنطينيين تراجعوا كثيرا امام تقدم الاهالي، و اكتفوا ببعض الحاميات في المدن الكبرى.

3- ثورات الاهالي: بعد القضاء على الوندال، اصطدم البيزنطيون بمقاومة الاهالي، و هي المقاومة التي استمرت طيلة الحكم البيزنطي. و رغم الانتصارات التي كانت تحققها الجيوش البيزنطية الناتجة اساسا على الخلافات في صفوف قادة الاهالي، غير ان هذه الانتصارات لم تكن حاسمة، لدرجة ان الاهالي كانوا سرعان ما يعودون بقوة و يهددون حتى قرطاجة نفسها، مما يدل على تزعزع النفوذ البيزنطي في المنطقة.

4-الجدل الديني: اذا كان مجمع خلقدوقية سنة 451 قد حرص على التنديد بالنسطورية القائلة بثنائية الذات الالهية و البشرية، و ان مريم هي ام للانسان لا الاله، كما ندد ببدعة يوتيشاس (Eutyches)، فان ذلك لم يضع حدا للجدل، اذ سرعان ما ظهرت مشكلة الفصول الثلاثة، التي حاول يوستينيانوس التشهير بها، و تلتها الاضطرابات الناتجة عن القول بالطبيعة الواحدة للمسيح. فكان التدخل الاباطرة في المسائل الدينية، ومساندتهم لدعاة الطبيعة الواحدة وقع سيء في نفوس الارثودوكس، و خلق نوعا من عدم الرضا_ العام، شجع جرجيريوس (Grégoire) على الانفصال عن الامبراطورية.

في هذا الوقت بالذات، كان المسلمون على الابواب، فبعد فتح مصر و برقة، جاء دور افريقية، التي ستضع في معركة سبيطلة(647م) حدا لجرجيريوس و معه السلطة البيزنطية، و بذلك تدخل بلاد المغرب عهدا جديدا تعرف فيه تحولا عميقا تختفي معه افريقيا القديمة.